في المـــــذهب الرمزى

تعليـــق

للدكتور بشر فارس

قبل أن يندفع قلمى فى التعليق أحب أن أشكر لصـاحب « الرسالة » انبساطه إلى مسرحيتى « مفرق الطريق » إذ سمح بنشر نقد مسهب لها لأسبوعين مضيا ، ثم بحث مستفيض فى المذهب الرمزى لأسبوع مضى ، وكلاهما من قلم الأستاذ زكى طليمات مفتش التمثيل بوزارة المعـارف . وكأن صاحب « الرسالة » يُصِرّ أن تُنقل الأساليب المستحدثة على يده إلى قراء العربيـة . أليست « الرسالة » رسالة ؟

والحق أنى ما كنت لأتوقع أن يهتز القراء حتى النقاد لمسرحيتى ذهاباً منى أنها تنحرف عن ألوان الأدب المروفة عندنا انحرافاً شديداً فلن يكون مصيرها سوى الضياع ، حتى فوجئت بطائفة من الرسائل والمقالات جعلتنى أرى الشرق العربى غير نفور مما يهجم عليه من باب كان مغلقاً ، بل غير جزوع مما يحمِّل الفهم بعض المشقة . وإليك دليلا على هذا ما بعث به الأستاذ أمين الريحانى : « تصفحت الرواية أولا بشىء من الاستغراب والدهش . ثم قرأتها لأفهمها ففهمتها — أظن — واستكبرتها على صغرها . ثم أعدت قراءتهـا للمرة الثالثة متلذذاً بمحاسنها الفريدة الجمة ، برقائقها الصوفية ، وحقائقها المادية ، ونظراتها الفلسفية ، وروائعها الفنية ... » . فإنى لفرح بهـذا الأمر لأنى حققت ما قلت فى توطئة المسرحية : « وعندى أنه قد حان الزمن الذى فيه أصبح الإيجـاز والإيحاء فى الانشاء الرفيع أحب إلى القارئ العربى المهذب من التطويل والتذييل ... »

هذا وقد خطر لى أن أصنع للمسرحية توطئة جامعة أبسط فيها طريقة المسرحية لأهيئ الأذهان إلى الوقوف عليها ، لا تطاولاً منى ، معاذ الله ! ولـكن تلطفاً فى استدراج القارئ إلى القراءة وكشفاً عن نزعة قلمى . وإذ لم أجد بداً من إطلاق عنـوان على تلك الطريقة دونت هذه الجملة : « هذه قصة تمثيلية على الطريقة الرمزية — إذا شئت . » أتدرى لم قلت « إذا شئت » ؟

إن لفظة الرمزية فى الأدب الحديث تصرف ذهنك على الفور إلى الطريقة التى ابتـكرها نفر من شعراء الفرنسيين خاصة حول سنة ١٨٨٦ ، تمرداً على الأسلوب الوضعي الجامد الذى كان له الأمر فى ذلك العهد ، وانقلاباً إلى وحى الوجدان : إلى تغليب الإحساس على العقل . وروّاد الرمزية (ألويزوس برتران) و (جيرار دى نرڤال) ولا سيما (بودلير) الفحل . وأما أبطالها فـ (أرتر رامبو) و (بول ڤرلين) و (مالارميه) ثم (لافورج) و (كاهن) و (رودنباخ) و (ڤرهارن) و (موریاس) و (ستوارت مِرِل) و (هنرى دى رينييه) و (ديجاردان) و (سامان) وغيرهم . وسرعان ما انتحى المذهب نواحى مختلفة بالإضافة إلى الأداء وإن استقامت جميعها على عمود واحد من الاستلهام . وإذا نحن وقفنا عند أبطال المذهب أصبنا (رامبو) يعول على السحر اللفظى ، و (ڤرلين) على الترنم ، و (مالارميه) على الإيهام . وقد دُوِّنت هـذه النواحى إلى جانب ما وقع بين أصحابها من المناظرات فى مجلات صغيرة أنشئت للدفاع عن الرمزية وبثها فضلاً عن هدم الشعر الاتباعى القائم ، اذكـر منها : le Symboliste, la Cravache, le Scapin وكان لأجـل « الرمزية » — فوق هذا — قهوات يجتمعون فيها ، قد أدركت واحدة منها فى باريس قبل أن تنقلب قهوةً حديثة ، وكان اسمها le Panthéon ، وهي اليوم Caboulade

وقد راسلت « الرمزيةَ » فى الشعر « رمزية » فى الموسيقى والفن تأخـذ مأخذها . وأمهر الموسيقيين الرمزيين (كلود ديبوسى) ، وأبرع المصورين (بوڤيه دى شاڤان) ، والنحاتين (رودان) معلم جبران خليل جبران

ثم إن « الرمزية » الشعرية امتدت إلى ما يلى فرنسا شمالاً وجنوباً . فظهر في ألمـانيا (رِلـكه) و (ديمل) ، وفى انجلترا (ييتس) ، وفى البرتقال (أوجينيو دى كاسترو)

وأما مصادر هذه « الرمزية » فيتنازعها الأدب والفلسفة والفن والموسيقى . وإذا نحن قررنا أن الرمزية إنما هى — آخر الأمر — التعبير عن الحيـاة الباطنة رجعنا خاصة إلى تأويل (بودلير) : « الفن الخالص أن تخلق سحراً يوهم ويوحى فيضم فى آن الذات والموضوع » ، وإلى قولة (شوبنهور) : « العالم هو ما يتمثل لى » ، وإلى منهج نفر من المصورين الانجليز الموسومين

بهـذا اللقب Pre - Raphallite Brotherhood ، وهو منهج يصعد إلى سنة ١٨٤٨ وقوامه أن المصور ينبغي له أن ينبذ القواعد المضبوطة ليترك عينه تقرأ على هواها في صحيفة الطبيعة . ثم إلى ثورة (فجنر) على الأوبره التقليدية وإدراجه « العنصر الإنساني الخالص » أو « Rein menochlick » في المأساة الموسيقية

* * *

تلك هي الرمزية الأولى في الأدب الأفرنجي الحديث ولاسيما في الشعر . وقد انحلت إلا قليلاً عند مختتم القرن التاسع عشر . إلا أنها شقت طريق أدب العصر ، وخلفت مذهباً آخر هو مذهب الـ Surréalisme (ماوراء الواقع) . بل إنك ترى الأدب والفلسفة وعلم النفس والموسيقى والفن حتى الرقص تجرى اليوم إلى غاية واحدة ، وكل واحد منها يؤثر في الآخر . وكان بودى أن أشير إلى كل هـذا حتى يأتي اليوم الذى فيه يتاح لي أن أكتب رسالة ضافية فأشرح هـذا الجانب من الثقافة الحديثة . ولكني أخشى الإطالة وأكره أن يتطرق الملل إلى قراء «الرسالة». وجل ما أثبته اليوم أن الظاهرة الغالبة على آداب هـذا العهد وفنونه في بلاد الفرنجة إنما هي الرغبة في الفرار ، لا الفرار من الدنيا أنفة ومرضاً نفسانياً على النحو الابتداعي (الرومنتيكي) ، ولكن الفرار من المنقول والمصطلح عليه ، ومن القواعد القائمة والصناعة الموقوفة ، ومن العالم المتناسق المختلق اختلاقاً بكد أذهاننا ، ومن الطبيعة البشرية الموثوقة ، ومن العقل المتصلب والمنطق المتجمد واليقين الملفق

* * *

أتدرى لمَ قلت : « ... إذا شئت » ؟

إني أردت أن أستدرك ، محاذرة أن ينصرف ذهن القارئ إلى الطريقة الرمزية الأولى خاصة . وقد أنأت هـذا الاستدراك بخمس صفحات بسطت فيها وجهة الأسلوب الذى أجريت عليـه المسرحية ، فجاء حديثي عن الفلسفة والأدب كالتأسيس ، وكلامي على التصوير والموسيقى والرقص كالتمثيل . ثم إني لم أعرض لتاريخ الرمزية لأن التوطئة رسالة فنية لا شأن للنقد فيها . على أن ذلك الأسلوب إنما هو أسلوب « انساق له قلمي ورفت إليه نفسي بعد التحصيل والروية والاجتهاد » وإن كان متأثراً بالرمزية الأولى ولا سيما بالمذهب الذى خلفته . وهذا الذى حملني على أن أختار لفظة « الرمزية » دون غيرها فضلاً عن أن المسرح الحديث لا يزال يحمل هذه اللفظة عنواناً له

حقاً إن الرمزية الأولى كانت قد أوحت مسرحيات مثل la Petite Bête (لبول فور) و Intérieur (لميترلنك) و Libu Roi (لجارى) مثلت كلها في Théâtre d'Art و Théâtre de l'œure . غير أن المسرح الحديث وإن سماه أهل الفن « المسرح الرمزى » من باب الاصطلاح لينهض على عناصر تزيد على التى عرفتها الرمزية الأولى : ينهض على نتائج علم النفس الحديثة (تجارب «شاركو» في التنويم والإيهام ، و«ريبو» في أمراض الذاكرة والإرادة الشخصية ، و « فرويد » في أحوال العقل الباطن ، و«برجسون» في تغلب المضمر الذى في النفس على البارز) ونظريات الفلسفة (الإدراك بالبصيرة لا بالعقل على نحو ماترى « برجسون» ثم الشك في العلم المطلق والرفع عن المواضعة حسب مذهب علماء الطبيعة لهذا العصر) وقصص جماعة من الروس مثل « دوستيوفسكي وتولستوى وجوركى » ففيها يبرز الخلق كأنهم على فطرتهم ، ولكنها فطرة من صفت نفسه حتى أنها تأبى القناعة بثقافة الذهن وحده) ، ومسرحيات أدباء الشمال مثل «بيورنسن» ولا سيما «إبسن» حيث الغالبات النفسانية تصرع قوى الحيـاة الاجتماعية ، ثم قصص فئة من الأنجليزيات مثل « كاترن منسفلد» و«فرجينيا وولف» لما يطرد فيها من التأثرية المحضة . ثم أضف إلى هذه العناصر ما انبثق من جانب الفنون الأخرى كالتصوير التعبيري والموسيقى التأثرية والرقص الإيهامي

والمسرح الرمزي الحديث على ألوان . ولا أحب أن أفيض في هذا الموضوع الجديد . وحسبي أن أذكر أسماء بعض رجاله النابهين ، وهم : (إبسن) و (هوبتمن) و (ميترلنك) وإن رجعت طريقته إلى الرمزية الأولى ، و (هنرى باتاى) أحياناً ، و (لينورمان) وإن كانت طريقته قريبة المأخذ ، و (كلوديل) وإن نزع إنشاؤه إلى ماوراء الطبيعة على مثال إنشاء صاحبه فاليري الشاعر ، و (جانتيون) مؤلف قصة « مايا » التى شهدتها ثلاث مرات في مسرح (مومبارناس) في باريس سنة ١٩٣١ ، و (جان كوكتو) و(جيرودو) و(ريستلي) أخيراً و(أليس جرنستبرج)(١)

(١) وفي « مقتطف » دسمبر سنة ١٩٣٧ مسرحية في فصل واحد لهذه المؤلفة منقولة عن الأنجليزية بقلم الآنسة ميترفا عبيد

و (بيرندللو) العظيم ثم (روبندرونات توجور) إذا شئت ، وإن كانت مسرحياته تشف عن وثبات الصوفية الهندية

كتبت « هذه قصة تمثيلية على الطريقة الرمزية — إذا شئت . غير أن النقاد وقفوا عند مفاد الرمزية الأولى أو كادوا سواء أهملوا الخوض في مفادها أم خاضوا . وممن خاض الأستاذ صديق شيبوب في صحيفة «البصير» (٨ ابريل ١٩٣٨) والأستاذ زكي طليمات في مجلة «الرسالة». ثم إن الأستاذ ميخائيل نعيمة كتب إلى يقول : «... ومسرحيتك هذه تدرج على الطريقة الرمزية ، طريقة فاليري (الشاعر المذكور فوق هذا الكلام) وهي كزيّ جديد في الأدب العربي حقيقة بأن نؤهل بها . . . ووقفت في مقدمتها (يعني توطئتها) على أدق وأجل بيان قرأته في العربية عن الطريقة الرمزية وغاياتها . . . »

إلا أنه لا يفوتني أن أذكر أن ناقداً واحداً تنبه لما أردت . فقد نشرت صحيفة (الجورنال ديجبت) le journal d'Egypte البارزة في القاهرة، يوم (١٩ ابريل ١٩٣٨) ، مقالا غزيراً باللغة الفرنسية للأستاذ إدجار جلاد ، جاء فيه أن الرمزية في «مفرق الطريق» بين التأثيرية والتعبيرية وأنها تتميز بالبصيرة الشرقية فهي لا تماثل الرمزية الأولى

أن أدفع وهماً ذلك الذي يعشى على كتابة هذا التعليق . وقبل الخروج منه أحب أن أشكر للأساتذة ميخائيل نعيمة وزكي طليمات وصديق شيبوب فضلهم . وهل للأستاذ زكي طليمات أن يأذن لي في أن أكاشفه بأني فرحت فرحاً شديداً لما أصبته يستعمل في مقاليه بعض تراكيب جرت على قلمي في توطئة المسرحية ، منها : «المحسوس وما وراء الحس» ، «لوامع النفس» ، « منعطفات الروح ومثاني المادة » ، « التخيل المنسرح » ، وما فرحي إلا لأني أرى تراكيب اجتهدت في سياقها تنطلق على قلم كاتب مفنّن ، وكنت أخشى أن تموت يوم ولدت . ثم هل للأستاذ زكي طليمات أن يفسر لي قوله في بحثه في المذهب الرمزي « إن ب . ف . يكتب متثبتاً بما تلقنه ؟ » وفي « لسان العرب » « وقد لقنني فلان كلاماً تلقيناً أي فهمني منه ما لم أفهم [1] »

بشر فارس

(١) وثمة شيء آخر — ذكر الأستاذ طليمات أن جبران خليل جبران من رواد الرمزية في الأدب العربي المستحدث . والذي يبدو لي أن جبران إنما جرى على منهاج (وليم بليك) الانجليزي William Blake (١٧٥٧ — ١٨٢٧) ذلك الشاعر الصوفي والفيلسوف المحدث القلب